الجاحظ والشيطان

٧٧٥ م - ٨٦٨ م

لا شك أن شكل الإنسان ولونه وطوله وعرضه هبة ومنحة من عند الله، وكلما كان الإنسان جميل الوجه طويل القامة متناسق الجسم، كلما تقبله الآخرون، و نعكس ذلك عليه فأصبح سَوى الشخصية مقبلا على الحياة متفائلا، لكن الواقع أن الإنسان ليس له دخل فى شكله أو جسمه أو طوله أو عرضه، من هنا كان علينا أن نحترم كل إنسان مهما كان شكله أو جسمه، فالإنسان يحترم لكونه إنسانا، قبل كل شىء وبعد كل شىء، والإنسان الفاضل هو الذى يستطيع أن يحول قبحه ودمامته وعيوبه الخِلقية إلى جمال الروح ورجاحة العقل، ويسخر من نفسه فى ثقة كبيرة بأن الروح أهم من الجسد، ويدفع الآخرين إلى تقبله والإقبال عليه، وحب الجلوس إليه والاستماع له، حتى يصبح نجما معروفا فى مجتمعه، بل وفى المجتمعات الأخرى.

هذا ما فعله الجاحظ المفكر والأديب والعالم عاشق الثقافة، شهيد الكتب.

كان من حظ الجاحظ أن يولد فى أزهى العصور الإسلامية، عصر الدولة العباسية، حيث كانت «بغداد» عاصمة الفكر والثقافة وحرية الحوار، وملتقى العلماء والأدباء، ومركز المناظرات، وترجمة كتب

اليونان والفرس، وانتشـار علم الكلام والفلسفة والمنطق والعلوم والطب والرياضة وعلم الحيوان والنبات.

فى هذا العصر ولد (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب)، فى سنة ٧٧٥ م – ١٥٩ هـ، وقد اشتهر بعد ذلك باسم الجاحظ، لأنه كان جاحظ العينين، أى إن عينيه كانتا بارزتين. كان مولده فى مدينة البصرة، فى أسرة فقيرة، وفقد والده وهو مازال فى سن الطفولة. مما اضطره إلى العمل كبائع خبز تارة، وسمك تارة أخرى ليساعد أسرته على الحياة، لكنه كان فى نفس الوقت شغوفا بالعلم والعلماء. ورجال الدين والشعراء، ولم يمنعه العمل والبحث عن الرزق، وهو فى هذه السن الصغيرة، التى لا تزيد على عدد أصابع اليدين، عن طلب العلم والذهاب إلى «الكُتّاب» فى البصرة ليتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم والأشعار والنوادر، بل وكان يذهب إلى سوق المربد قرب البصرة يلتقى بالشعراء والخطباء ورواة السير والنوادر يسمع منهم ويكتب عنهم فى كراسة خاصة به، كل ما يعجبه من أشعار وحكم وطرائف وحقائق علمية. وكان بجانب ذلك يذهب إلى دكاكين الوراقين. وهى مثل المكتبات فى هذه الأيام، يقرأ فى شتى المجالات، يكاد يلتهم الكتب من شدة حبه للمعرفة، وشغفه بالأدب والشعر والدين، وكان أحيانا يبيت فى هذه الدكاكين، ليقرأ طول الليل ويشبع نهمه إلى الثقافة، وفى مسجد البصرة تعرف بطائفة المسجديين وهم طائفة من العلماء والأدباء والفقهاء أخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه ونبوغه وشغفه إلى المعرفة.

ذات صباح طلب عمرو من أمه طعام الإفطار، فغابت عنه مدة، ثم عادت ووضعت أمامه طبقا عليه مجموعة من الكراسات المكتوبة التى ملأ بها البيت، فسألها عمرو فى دهشة عن طعام الأفطار؟ فأجابته بأنها لاتملك فى البيت غير هذه الكراسات التى يحملها فى ذهابه وعودته. تألم عمرو لسببين، كما يقول أحمد الشيخ فى كتابه عن الجاحظ، سلسلة عظماء عاشوا بالأمل:

الأول أن بيته ليس فيه طعام، دقيق أو تمر، والسبب الثانى لأن أمه المسكينة لم تقدر قيمة كراساته والجوع يلازمها فى البيت.. وخرج عمرو إلى مسجد البصرة والتقى بأحد المشايخ الذى سأله عن أسباب حزنه وألمه، فقص عليه حكايته، وتألم الشيخ الوقور للصبى عمرو، لأنه كان يقدر ذكاءه وموهبته وحبه للعلم، ثم اصطحبه إلى بيته حيث قدم له طعاما وشرابا، بل ومنحه صُرة فيها مبلغ خمسين دينار، وتعجب عمرو الجاحظ، ولم يصدق أن هذا المبلغ الكبير له، فطمأنه الشيخ، وقال له إنه يستحق أكثر من هذا، ونصحه أيضا بالقيام برحلة خارج البصرة مع بعض المشايخ حتى تزداد معرفته وتتسع آفاقه.. وهرول الجاحظ الصغير إلى السوق واشترى لأمه الدقيق والزيت والتمر، وترك معها ما تبقى من المال واستعد للسفر، وعندما أبدت الأم دهشتها من المال الوفير والطعام وسألته عن مصدره؟ أجابها وهو يضحك:

سبب هذا المال الوفير الكراسات التى قدمتها لى فى الصباح يا أمى هاهاها.

بـدأت الرحلـة الطويلة من البصـرة، وعبرت صحـراء الحجاز، ثم اتجهـت إلى بلاد البحرين إلى بغداد، كان عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ طفلا فى الثانية عشرة من عمره، ضئيل الجسم، لكن عمره العقلى كان أكثر من ذلـك بكثير، فقد دفعته قراءاته وثقافته إلى الثقة فى النفس والإيمان بالعقل، وعلى الرغم من أنه كان أصغر من فى الرحلة إلا إنه أدهش الجميـع بذكائه وقدراته على الحفظ،ومعلوماته الغزيرة، فكانوا يجلسـون حوله ويسـمعون منه الروايات والأشـعار والنوادر، فتزداد ثقتهم فيه، ويتأكدون أنه نابغة عصره، وكان يسجل كل مشـاهداته وملاحظاته فى كراسـاته، والتقى بالشـعراء والرواة، وسمع الكثير من الأسـاطير العربية وأخبار القدماء وأشعارهم، وعرف الكثير من طبائع الحيوان والعلمـاء والبخلاء، وفى بغداد اتصل بكبار رجـال الدين وعلماء الفقه، وتردد علـى مجالس الأدباء مثل ابن وهب وابن الزيات فوجد عندهم مالم يجده عند غيرهم، فعرف ماهية الشعر والأدب، وقضى سنتين فى هذه الرحلة المفيدة.

عاد الجاحظ إلى البصرة ومعه ثروة من المعلومات فى شتى المجالات، فى الأدب والشـعر والنوادر وطباع البشـر والموسـيقى والرقص والغناء والعلـوم والجغرافيـا، وأنواع الأسـماك فى الأنهار والبحـار، وأنواع النسـور والصقور والغربان فى السـماء، والثعالـب والحيات والذئاب وبعـض الأحجـار والمعادن مثل النحـاس والرصاص،فأخـذ يفند هذه المعلومات وينظمها للاستفادة منها.

وشعر الجاحظ برغبة فى الكتابة، ورسالة يريد أن يوصلها لكل إنسان، هى رسالة التنوير وحب المعرفة، والإيمان بالعقل،فهو التاج الإنسانى لكل الأعمال والأفكار، وهو الذى يفرق بين الإنسان والحيوان.

لم يهتم الجاحظ بجحوظ عينيه، ولا بقصر قامته، ولا بلون بشرته الأسود، وملامحه الغليظة، وشكله القبيح، ووجهه المشوه، حقيقة أن الناس كانت تنفر منه من أول نظرة لكنهم سرعان ما يكتشفوا خفة روحه، وحبه للدعابة والسخرية، حتى من نفسه وشكله، وتفائله الشديد، وابتسامته العريضة، وسروره الدائم، وثقافته الرفيعة فيلتفوا حوله، وينصتوا إلى حكاياته ونوادره وأشعاره وعلمه الغزير، ويعشقوا شخصه المرح، وينسوا دمامة وجهه إعجابا برجاحة عقله وحلو كلامه.. ثم ما ذنبه أن خلق هكذا؟

أقبل الجميع على عمرو بن بحر محبوب الجاحظ، الموسوعة الثقافية المتحركة، عاشق المعرفة، حتى أصبح نجما بين مواطنيه، ثم بين العرب جميعا، ألم يقدم للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابا فى شتى المعارف على اختلافها وتباينها؟

لم يكن الطريق سهلا ميسورا أمام الجاحظ للكتابة وعرض أفكاره ونظرياته على الناس، فقد سبقه كتاب كبار استوفوا شهرتهم، وعرفوا بين القراء، مثل «عبد الله بن المقفع» و «سهل بن هارون» وغيرهما، فماذا يفعل؟.. رفض أن يسلك فى مجال الشعر، فهو يعرف إمكاناته، وأنه لن ينجح كشاعر لأنه لا يملك هذه الموهبة، فليس كل من ينظم الشعر

بشاعر، كان صادقا مع نفسه عندما اكتشف أنه على استعداد حقيقى لرواية القصة والنادرة والفكاهة، وأنه يعرف الكثير عن عادات وطباع الناس والحيوان والطير. وأخذ يسأل نفسه إن كان يقدر على تأليف كتاب أم لا؟ وهل مجرد حفظ الأشعار والفكاهات والحقائق العلمية وغيرها كاف لكى يكون كاتبا؟

ولأنه كان متفائلا محبا للحياة قال لنفسه فالأحاول، والحياة ما هى إلا محاولات. وبدأ فعلا فى لكتابة. كان يكتب الأوراق فى المساء، ثم يمزقها فى الصباح، لأنها لم تعجبه، ثم يحاول مرة ثانية فى اليوم التالى. وهكذا. وخطرت على باله فكرة ذكية. هى أن يكتب كتابا ثم ينسبه إلى ابن المقفع حتى يرى ويسمع انطباع الناس الحقيقى عليه. وجرب هذا عدة مرات، يكتب ويذيع ما كتبه على الناس، على أنه من تأليف ابن المقفع، ونال انتاجه إعجاب الناس وتقديرهم، مما شجعه فى النهاية على أن يسفر عن وجهه الحقيقى، ويقدم كتبه باسمه هو، لا بأسماء مستعارة.

روى المسعودى فى كتابه «التنبيه والأشراف» أن الجاحظ كان يقول:

«كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه، ولا الإرادات تتيمم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأنحله (أنسبه إلى) عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين..».

خلال القرن التاسع الميلادى - الثالث الهجرى - تمتع الجاحظ بشهرة كبيرة بين كتاب عصره، ورأس المدرسة النثرية الثانية فى الأدب العربى، وكان عبد الحميد وابن المقفع قد تزعما المدرسة الأولى. أما مدرسته الثانية فقد امتازت بميلها إلى الإطناب والتوضيح والاهتمام بمصادر الثقافة العربية، والشغف بالمنطق كلما دعت إليه الحال، والبحث عن الحقيقة، وإعمال العقل، وفى هذا يقول الجاحظ:

(إن العيون تخطىء.. وإن الحواس تكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن.. وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل.. فهو زمام على الأعضاء، وعيار على الحواس)، على الرغم من اهتمامه بالعلم وعشقه للأدب والفن، إلا إنه كان يحب اللهو، وسماع القيان والمغنين، لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سُدى. فالوقت عنده أثمن من المال. يحرص عليه الحرص الشديد. وكان يقضى معظم أوقاته فى الرحلات لاستكشاف العالم والتعرف إلى الطبيعة والأحياء والأحجار والناس، كما كان يهوى الكتب، لا يجد كتابا إلا ويقرأه، يعرف القيمة الحقيقية للكتاب، يكاد يأكل الكتب أكلا بحثا عن المعرفة. وعن الكتاب قال:

«الكتاب هو الذى إذا نظرت إليه طال إمتاعك.. وشحذ طباعك.. وبسط لسانك.. وجود بيانك.. وفخم ألفاظك.. وعمر صدرك.. ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك.. وعرفت به فى شهر مالا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر..».

كان الجاحظ ساخرا، مبتسما دائما. يضحك حتى على نفسه وشكله القبيح. يحكى لنا هذه القصة عن نفسه:

كنت جالسا فى السوق، ومرت بى سيدة تضع على وجهها نقابا، جذبتنى من يدى، وعلى الرغم من أننى لا أعرفها سرت معها دون أن أعرف هدفها، ثم وقفت أمام صائغ وأوقفتنى، ونادت صاحب الدكان. ثم أشارت إلىّ قائلة: مثل هذا!!.

وسرعان ما اختفت السيدة، وتركتنى فى حيرة من أمرى! وقبل أن أغادر المكان سألت صاحب دكان الصاغة: هذه السيدة جاءت بى وتركتنى عند باب دكانك ولا أعرف لماذا؟!

ضحك الصائغ من قلبه ثم أجاب:

لقد طلبت منى هذه السيدة أن أرسم لها صورة الشيطان على خاتم يخصها. وقلت لها: ياسيدتى وكيف أرسم الشيطان وأنا لم أره فى حياتى؟ فقالت لى: انتظر، فانتظرت ثم غابت مدة طويلة، وفوجئت بها تأتى بك وتقول لى ما قالته.. أى إنك تشبه الشيطان، فاعف عنى إذا رسمت صورتك على خاتمها كما طلبت أمامك.

وضحك الجاحظ ولم يغضب، بل إنه كتب عن هذه الحادثة بعد سنوات يسخر من جحوظ عينيه، وقبح منظره. وهذه قمة السخرية، وتألق الشخصية السوية.

نادرة أخرى يحكيها لنا الجاحظ:

رأى الجاحظ سيدة طويلة جدا تقف أمامه وهو يأكل مع مجموعة من أصدقائه، فقال مشاكسا:

انزلى وكلى معنا.

فقالت هى ساخرة من قصره الظاهر:

اطلع أنت لترى الدنيا.
وضحك الجميع مع الجاحظ.

ترك أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الشهير باسم الجاحظ للمكتبة العربية ثروة من الكتب، تقدر بثلاثمائة وخمسين كتابا فى شتى موضوعات المعرفة، ولكنها لم تصلنا كلها للأسف، وقد ذكر الأب (حنا الفاخورى) فى كتابه عن الجاحظ، سلسلة نوابغ الفكر العربى رقم ٢ إصدار دار المعارف، ذكر أهم هذه المؤلفات كالأتى:

أولا: فى الفلسفة والاعتزال والدين:

كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال.. كتاب الاعتزال وفضله.. وله عنوان آخر هو «فضيلة المعتزلة».. كتاب خلق القرآن.. كتاب الرد على اليهود.. كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير..

ثانيا: فى السياسة والاقتصاد:

كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب.. رسائل فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة.. رسائل فى الخراج.. كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات.. كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب..

ثالثا: فى الاجتماع والأخلاق:

رسائل فى إثم السكر.. كتاب أخلاق الشطار.. كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة.. كتاب خصومة الحول والعُور.. كتاب البخلاء.

رابعاً: فى التاريخ والجغرفيا والطبيعيات والرياضيات:

كتاب الأخبار وكيف تصح.. كتاب الملوك والأمم السالفة

والباقية.. كتاب الأمصار.. رسالة فى الكيمياء.. كتاب المعادن.. كتاب نقض الطب.. الحيوان.

خامسا: فى العصبية وتأثير البيئة:

كتاب القحطانية والعدنانية.. العرب والعجم.. رسالة فى فخر السودان على البيضان.. كتاب مفاخرة السودان والحمران..

سادسا: فى الأدب والشعر والعلوم الإنسانية:

كتاب البيان والتبيين.

سابعا: فى موضوعات شتى:

رسالة التربيع والتدوير.. رسالة فى العشق والنساء..كتاب الإخوان..

عاصر الجاحظ فى حياته الخلفاء العباسيين: المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمنتصر والمتوكل والمستعين بالله والمعتز بالله. وكان الخليفة المأمون من المعجبين بفكر الجاحظ وثقافته وكتبه، مما دفعه إلى أن يعرض عليه تولى ديوان الرسائل والإشراف عليه. وكانت مفاجأة للجاحظ، ولم يستطع الرفض أمام هذه الثقة الغالية من الخليفة. وديوان الرسائل هذا أشبه بمنصب الوزارة، ولا يرقى إليه إلا أصحاب الثقة والعارفين بالسياسة والموهوبين المثقفين. قبل الجاحظ المنصب، لكنه لم يستمر فيه أكثر من ثلاثة أيام، فقد واجه نفسه وسألها بصراحة: هل أصلح لمثل هذا المنصب الرسمى

الكبير وأنا الذى وهبت نفسى للثقافة والمعرفة، أقرأ وأكتب وأبحث عن الحقيقة بكل حرية الفكر؟.

اهتدى الجاحظ إلى ضرورة ترك ديوان الرسائل حتى يتفرغ لرسالته التى بدأها، ويريد أن يستمر فيها حتى نهاية العمر. إنها رسالة المعرفة والثقافة وتأليف الكتب والإيمان بالعقل ونبذ الخرافات والعادات والتقاليد البالية، وترك الجاحظ الديوان وكله حماس لرسالته، وشعر كالعصفور الذى ينطلق من قفصه الذهبى إلى الحرية والحياة.

عاش الجاحظ فى آخر حياته فى عصر قلق فالأتراك والفرس والعرب يتسابقون فى الوصول إلى الحكم، والخلاف فى الرأى مطلوب، لكنه تعجب وحزن من محاولات البعض فرض الرأى بالقوة. وقتل أصحاب الرأى الآخر بدلا من محاورتهم، واعتبر هذا اغتيالا للعقل نفسه، وعدم احترام للإنسانية. لأن الإنسانية تدفع إلى احترام العقل، واحترام العقل يشجع المحاورة الحرة للرأى والرأى الآخر وصولا إلى الصواب والقضاء على التعصب المدمر الجاهل. ولقد سبق الجاحظ الفيلسوف الفرنسى المعروف «ديكارت» الأب الروحى لفلاسفة العصر الحديث فى اهتمامه بالعقل، والاعتماد عليه فى كل الأمور المهمة، وهذا السبق يعود إلى الزمن الذى عاش فيه كل منهما، فلقد عاش الجاحظ فى القرن التاسع الميلادى، بينما عاش ديكارت فى القرن السابع عشر (١٥٩٧ - ١٦٥٠). بل إن الجاحظ وصل إلى الإيمان بالله عن طريق العقل عندما قال:

«أنا موجود وليس وجودى بنفسى، فأنا غير كامل، وإذن فالكامل الذى أوجدنى هو الله، فهو موجود».

بجانب العقل اهتم الجاحظ أيضا بالتجربة ودقة الملاحظة. والقيام بالرحلات للتعرف إلى الطبيعة والكون. وكان يجرب كل شىء بنفسه، ويسجل ما توصل إليه فى فهم الطبيعة والإنسان والحيوان والنبات.

فى سنواته الأخيرة قبل الرحيل، أصيب الجاحظ بفالج نصفى (شلل) حدد حركته ونشاطه، بالإضافة إلى مرض النقرس. ولم يستسلم للاستكانة والراحة، مع أنه كان قد بلغ من العمر فوق التسعين. ولم يهتم بالمرض أو الشيخوخة. وإنما ظل يجلس بين كتبه يقرأ ويبحث عن المعرفة، فقد كانت القراءة و لثقافة كى حياته. وهرع العلماء والأدباء لزيارته والاطمئنان عليه. وذات مساء بينما كان يجلس كالعادة وسط كتبه ومؤلفاته وكراساته، وفى الصباح عثروا عليه ميتا تحت الكتب، وعلى وجهه ابتسامة الرضا، لقد عاش طوال حياته يعشق الكتب، وها هى ذى الكتب تودعه وهو مبتسما لها يعانقها فى حب دائم ٢٢٥ هـ ٨٦٨م ورحل أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، الموسوعة المتحركة، رجل العلم والأدب والفكر. والإنسان المتحضر المؤمن بحرية الفكر والرأى الآخر.